بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم

الأدب مع رسول الله ﷺ حياً وميتاً

إعداد

د. يوسف محمد النور حامد*

* أستاذ مساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :-

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على نبي الرحمات محمد بن عبد الله صاحب البشارات والمعجزات ، وعلى صحبه وأزواجه الطاهرات القانتات ، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث بعد الممات.

أما بعد ...

فيقول الله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم * إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم " (سورة الحجرات : الآيات ، ٢-٥) .

الناظر إلى الآيات الكريمات هذه يجد أن سبب نزولها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأدب مع الله ومع رسوله ﷺ . فقد قيل في سبب نزولها وكما أخرج البخاري " كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب من بني تميم ...." وقيل نزلت في وفد بني تميم أنفسهم ، وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه ، لأنه كان جهير الصوت عند رسول الله ﷺ .

فالآيات في وحدتها الموضوعية تؤلف أدباً كاملاً في أصوله يلزم كل مؤمن أن يوفره لرسول الله ﷺ حياً كان أو ميتاً . وعلى ضوء هذا جاءت هذه المحاولة المتواضعة مني كي أسهم ولو بجزء قليل في تبيين احترام النبي ﷺ والتأدب معه حياً وميتاً . ولذا قسمت هذا البحث لخمسة مباحث جاءت كالآتي :

المبحث الأول : مفهوم الأدب في اللغة والاصطلاح .

المبحث الثاني : أدب الكلام عند رسول الله ﷺ .

المبحث الثالث : حرمته ﷺ بعد موته .

المبحث الرابع : غض الصوت عند رسول الله ﷺ والحياء منه .

المبحث الخامس : ما قيل في سبب نزول الآيات الدالة على الأدب مع رسول الله ﷺ .

ثم كانت الخاتمة ومن بعدها ثبت بالمصادر والمراجع .

مخلص البحث

الأدب الذي يجب توفره في المجتمع المسلم أفراداً وجماعات ، نحو الكتاب والسنة ، وهو ألا يتقدم عليهما بقول أو فعل ، وأن يحكما في كل شؤون الحياة في السراء والضراء وفي كل صغيرة وكبيرة لأن ذلك هو معنى الإيمان بالله وبكتبه ورسله ، وهذا هو الأساس الذي ينمو عليه المجتمع المؤمن ويفسر إيمانه وتثبت له شخصيته وأدبه الإسلامي .

وهذا هو أدب وخُلق الرسول ﷺ فيما أجابت به أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، حين سئلت عن خُلق الرسول ﷺ فقالت : " كان خُلقه القرآن".

ولهذا يطالب المؤمنون بالتأدب مع الله ومع رسوله ﷺ حياً وميتاً ، فإذا لم يتوفر هذا الأدب معه ﷺ فلن يفهم التأسي عنه ولن يستفيدوا مما جاء به من الوحي ، فكلما كانت المحبة له والأدب معه كان الإيمان به أوفر والفهم منه أشمل وأدق ، والذين لا يؤمنون به إيماناً صادقاً ولا يتحلون بالأدب معه ﷺ ولا مع ما جاء به من الحق لا يفهمون منه ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله :" ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم " (سورة محمد الآية : ١٦) .

المبحث الأول

مفهوم الأدب في اللغة والاصطلاح

قال العلامة ابن منظور : الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس سمي أدباً لأنه يؤدب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، والأدب أدب النفس [١].

والأدب حركة الظرف وحسن التناول ، وأدباً فهو أديب ، وأدبه : علمه فتأدب واستأ دب [٢] .

وأدبته أدباً من باب ضرب ، علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق ، والأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . وأدبته تأدباً أي عاقبته على إساءته لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب [٣] .

وأدب بالضم أدباً بالفتحتين فهو أديب واستأدب أي تأدب [٤] .

وعرف البعض الأدب بأنه إظهار التذلل والانقياد إلى من هو يتقدمك عمراً أو يعلوك مرتبةً . وقيل أن الأدب هو إظهار الخُلق (بضم الخاء) الحسن مع الآخرين .

المبحث الثاني

أدب الكلام عند رسول الله ﷺ

قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون " (سورة الحجرات الآية : ٢) .

هذا هو الأدب الذي ندب الله إليه المؤمنين بأسلوب ملزم لهم ، ولم يأت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما يصرفه عن وجوب الانتهاء حيث نهاهم الله عز وجل ، ولا ما يجيز لهم من بعيد أو قريب أن يرفعوا

---

[١] لسان العرب / ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ج١ ، ط٣ ، ١٩٩٣م ، ص٩٣ ، مادة أدب .

[٢] القاموس المحيط / الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، بيروت : دار الجيل ، ج١ ، ص٣٧ ، مادة أدب .

[٣] المصباح المنير / الفيومي ، أحمد بن محمد بن على المقرئ ، بيروت : المكتبة العلمية ، ج١ ، ص٩ ، مادة أدب .

[٤] مختار الصحاح / الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ص١٠ ، مادة أدب .

أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ ، وهو قريب من الله ، وصوته صوت حق . قال تعالى : " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " (سورة النجم الآيات : ٣،٤)

فأي داع ليرفع الناس أصواتهم عليه ويسابقوه في القول والفعل ، وينازعوه في الأمر والنهي ، وهو الأمين المأمون الحريص على هداية الناس وإرشادهم ، وقد أمره الله أن يلين جانبه للمؤمنين ، ويخفض لهم جناح الذل من الرحمة ، لقوله تعالى : " ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين " (سورة الحجر الآية :٨٨) . وقوله تعالى : " واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين " (سورة الشعراء الآية : ٢١٥) . وقال تعالى : " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا " (سورة الكهف الآية : ٢٨) .

وقد صادف هذا التوجيه الرباني وطابق ما خلق عليه وفطره ﷺ من أدب جم وخلق كريم ورأفة ورحمة ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام كالجبابرة الذين يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وخلقهم الله عبيداً له لا لغيره ، ولما كانت هذه السجية حقيقة هذا النبي الكريم ﷺ أمر الله بإكرامه واحترامه والتأدب معه وأوجب إتباعه وكان الجدير بالمؤمنين أن يقابلوا هذا الإحسان بالإحسان [1] .

فهو كما وصفه الله تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " (سورة التوبة الآية : ١٢٨) .

كان النهي في أول السورة (لا تقدموا) نهياً عاماً يشمل كل فعل يناقض الكتاب والسنة . أما النهي هنا (لا ترفعوا أصواتكم) فهو تأكيد لذلك لأنه نهي عن القول الذي يرفعون به أصواتهم اعتداداً بنفوسهم وكل ذلك لا يجوز عند رسول الله ﷺ ويتنافى مع الأدب اللازم عنده عليه الصلاة والسلام .

وهل النهي عن مجرد رفع الصوت فقط أم أن وراء رفع الصوت شيء ينبئ عنه لا يليق ؟ .

---

[1] التفسير الكبير / الرازي ، محمد فخر الدين بن عمر ، ط٣ ، ١٩٨٥م ، بيروت : دار الفكر ، ج٢٨ ، ص١١٤ .

أولاً : يجوز أن يكون المراد بالنهي رفع الصوت في حد ذاته لأنه دليل على قلة الاحتشام والاحترام والوقار ، ومن كان قلبه خاشعاً ضعفت حركة صوته وخاصة عند رسول الله ﷺ .

ثانياً : ويجوز أن يكون النهي لمنع كثرة الكلام لأن المكثر من الكلام يعلو صوته على صوت الآخرين عند سكوتهم ، ولا داع لهذا عند رسول الله ﷺ . لأنه عليه الصلاة والسلام عليه بيان كل شيء ولا يكتم شيئاً مما أمره الله بتبليغه للناس ، وهو يجيب على كل سؤال واستفسار ، وما سكت عنه أو لم يوح إليه بذكره للناس لا خيار لهم في الخوض والبحث فيه .

ثالثاً : ويجوز أن يكون المراد بالنهي ظاهره ، وهو ألا يرفع أحد صوته على صوت رسول الله ﷺ تعظيماً لشأنه في الخطاب وإنصافاً له كما أمر الله تعالى لأنه أدل على إتباعه .

كل ذلك يشمله النهي لأن من يحترم ويحتشم عنده وهو رسول الله ﷺ ومن يدرج في هذا الأدب العظيم كأهل العلم والفضل في الدين والوالدين ومن في حكمهما . يقل عندهم الكلام ولا ترفع الأصوات في حضرتهم [١] .

ولا يعني بالنهي رفع الصوت والجهر الذي هو استخفاف ، ويقصد به الإهانة فقط – وذلك كفر وردة – ولأن المؤمنين لا يقصدون الاستخفاف ولذا نهي عما دون ذلك فما فوقه من باب أولى ، وكذلك لم يتناول النهي رفع الصوت الذي تدعو الحاجة إليه ، كرفع الصوت في الحرب ، أو مجادلة خصم وإرهاب عدو ورد عليه ، وكل ذلك حصل في حضرة النبي ﷺ ولم يستنكر الوحي ذلك ممن حصل منهم بأمره أو تقريره [٢] .

وخلاصة القول كما يقول الزمخشري : إنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم وجهره باهراً جهركم حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته واضحة وامتيازه عن جمهوركم كشبه الأبلق غير خافٍ ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا بصخبكم . ويقول الله تعالى : " **ولا تجهروا له بالقول** " (سورة الحجرات الآية : ٢)

---

[١] التفسير الكبير / الرازي ، المرجع السابق ، ج٢٨ ، ص١١٢،١١٢ .

[٢] تفسير القرطبي / القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، ٢٠٠٠م ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ج١٦ ، ص٣٠٧

إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت ، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدوا في مخاطبته بالقول البين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر [1] ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله تعالى : " **وتعزروه وتوقروه** " (سورة الفتح الآية : ٩) .

هذا وما أبلغ الوصل هنا وهو عطف الجملة (**ولا تجهروا** [2] **له بالقول كجهر بعضكم لبعض**) . على ما قبلها لئلا يظن أن رفع الصوت المنهي عنه هو ما كان مستقبحاً عند الناس عامة فقط ، فمن يكلم رسول الله ﷺ ويتأدب معه كما يكلم ويتأدب مع غيره من الناس فلا شيء عليه ، وهذه المساواة جاءت الجملة المعطوفة وهي جملة النهي (ولا تجهروا) على جملة النهي الأولى (ولا ترفعوا أصواتكم) جاءت لتردها وتخصص لرسول الله ﷺ أدباً خاصاً وتوقيراً فريداً لا يرقى إليه أحد من الناس ولا ينبغي أن تعطى هذه المنزلة لغيره ﷺ فهو يجالس ويكلم ويتأدب معه فوق ما يكون لفضلاء الناس الذين يجب ألا ترتفع الأصوات فوق أصواتهم ، وذلك ما ترشد إليه الآداب والأخلاق العامة في كل المجتمعات .

فرسول الله ﷺ زيادة على ذلك تحقق الإيمان والعمل الصالح ، وكلاهما لا يثبت إلا لمن آمن بالله وبرسوله ﷺ وتأدب معهما ومع كلامهما ، بأدب الاحترام والاحتشام والإتباع والطاعة ، فإنه بعد هذا النهي من يرفع صوته ويسوي بين النبي ﷺ وغيره من الناس في الأدب والمجاهرة والمجاهدة والإخفاء يحبط عمله وهو لا يشعر بأن ذلك يحبط العمل كالمؤمنين الذين لا يقصدون إساءة الأدب إليه ﷺ [1] .

وأما من يشعر بأن ذلك يحبط العمل ويستهدف الإساءة فهو من باب أولى ، وكأنه لا إيمان له ، ولا عمل يتقي به الوقوع في المحظور كالمنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ، ولا يبالون بعظمة الوحي وجلال

---

[1] الكشاف / الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، القاهرة : دار الفكر ، ج٣ ، ص٥٥٤ .

[2] جهر : يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع جهراً وقد ورد في القرآن الكريم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً) وقوله تعالى : (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) . وأما السمع فكقوله تعالى : (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) وقوله تعالى : (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وما أخفى) . ويقال كلام جوهري وجهير لرفيع الصوت ومنه جهر البئر واجتهرها إذا أظهر ماؤها . انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ، ج١ ، ص١٠١ .

[1] الكشاف / الزمخشري ، ص٥٥٥ ، وتفسير بن كثير / ابن كثير ، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ، بيروت : دار الجيل ، ج٤ ، ص٢٠٦،٢٠٧ .

النبوة ومهابة الرسول ﷺ ، وكانوا يفعلون ذلك عنده ليقتدي بهم ضعاف المسلمين [٢] .

وقوله تعالى :(أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)[٣] موضع محك ونقاش لدى المفسرين ، فيوجه بعضهم هذه الجملة من الآية بأن المؤمن لا يكفر من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره ، فكما أن الكافر لا يكون مؤمناً وهو لا يعلم فكذلك المؤمن لا يكفر ولا يحبط عمله وهو لا يعلم[٤] .

وهذا قياس غير صحيح لأن الكافر يدخل في الإسلام ويعد مؤمناً باختيار الإيمان ، والمرتد عن الإسلام تكون ردته باختياره وبغير اختياره أحياناً كمن استباح ما حرم الله بدون تأويل ولا شبهة قائمة وأنكر حرمته ، أو أنكر ما فرضه الله عليه بمجرد الهوى ولا شبهة ولا يقصد الجحود .

وغالب المفسرين يفسرون هذه الجملة من الآية على ظاهرها دون جدل وتأويل ، فالمؤمن قد يحبط عمله سواء كان يشعر أو لا يشعر ، إذا ارتكب من شيء الأعمال ما يحبطه ، وإن لم يقصد المسلم إحباط عمله ولا يعلم أن هذا يبطل العمل[٥] . ومن الأدلة التي تؤيد هذا التوجيه في الآية ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :" إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم "[٦] .

وقد أفاض شراح الحديث في بيان هذا مستنيرين بنصوص أخرى من الكتاب والسنة كقوله تعالى :" وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم " (سورة النور ، الآية : ١٥) . وذكروا أن الكلمة التي تقال عند السلطان الجائر لضرر المسلمين يحبط بها العمل ، كما أن الكلمة التي تقال عند السلطان لرفع شأن الحق وأهله تدخل الجنة[١]

---

[٢] تفسير القرطبي / المرجع السابق ، ج١٦ ، ص٣٠٦ . الكشاف / الزمخشري ، المرجع السابق ، ج٣ ، ص٥٥٥.

[٣] حبط : الحبط وجع يأخذ البعير في بطنه من كثرة الأكل ، وإذا أكثرت الدابة الأكل انتفخت بطنها وذلك هو الداء الحباط كما ورد في الحديث " ... وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً ..." رواه البخاري ، ج١١ ، ص٢٤٤ . من فتح الباري ، والحبطات أبناء الحارث بن مازن التميمي أصابه هذا المرض الحبط الذي يصيب الماشية فنسب أولاده إلى ذلك . انظر لسان العرب / ابن منظور ، ج٧ ، ص٢٦٩ ، مادة حبط .

[٤] تفسير القرطبي / المرجع السابق ، ج١٦ ، ص٣٠٨ .

[٥] تفسير الطبري / المرجع السابق ، ج٢٦ ص١١٩ .

[٦] فتح الباري على صحيح البخاري ، ج١١ ، ص٣٠٨ .

[١] فتح الباري على صحيح البخاري ، ج١١ ، ص٣١٠،٣١١ .

المبحث الثالث

حرمته ﷺ بعد موته

لقد نص السلف الصالح من الأئمة والعلماء المحققين أن حرمته ﷺ وتوقيره وتعظيمه والحياء منه كل ذلك لازم في حياته وبعد وفاته ﷺ ، فكما لا يجوز أن ترتفع الأصوات فوق صوته في حياته ، لا يجوز كذلك أن ترتفع الأصوات عند قبره الشريف ﷺ ، وعند قراءة سنته المطهرة وسيرته العطرة ، لأن السنة وحي ، فكل ما كان من حقه واجباً في حياته على الناس من هذا الأدب والتوقير يلزم بعد وفاته ﷺ [٢] .

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : " معلوم أن حرمته ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته وبه نعلم أن ما جرت به العادة من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز ولا يليق ، وإصرارهم عليه من المنكر " [٣] .

وقد سمع سيدنا عمر رضي الله عنه ، صوتاً في المسجد النبوي ، وهم يعلمون أن رفع الصوت عليه حياً وميتاً لا يجوز – فيما روى السائب [٤] بن يزيد قال : " كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : اذهب فأتني بهذين ، فجئته بهما . فقال : من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ " [٥] .

وقد بلغ اهتمام العلماء بهذا الأدب القرآني أن استخرجوا منه وقاسوا عليه أنه لابد من احترام العلماء ، وأنه لا ترفع الأصوات عليهم ، وقد ذكر عن ابن عباس رضي الله عنه أنه يأتي إلى أبواب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ويسأل عن السنة ويرويها ويطلب العلم عليهم ، فيجلس عند باب من يقصد

---

[٢] الشفا / القاضي عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ج٢ ، ص٤٠ . أحكام القرآن / ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ج٤ ، ص١٧٠٣،١٧٠٤ . وتفسير ابن كثير ، ج٤ ، ص٢٠٧ . وروح المعاني / الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود ، ط٤ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ج٢٦ ، ص١٣٧ . والإكليل في استنباط التنزيل / السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، ص١٩٦ .

[٣] أضواء البيان / الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار ، ط١ ، ١٩٩٥م ، بيروت : دار الفكر ، ج٧ ، ص٦١٧ .

[٤] هو السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة الكندي وهو وأبوه صحابيان ، حج به أبوه حجة الوداع وعمره سبع سنين ، توفى بالمدينة سنة ٨٦هـ وقيل سنة ٩١هـ وهو آخر من مات فيها من الصحابة ، وقيل سهل بن سعد . انظر الخلاصة / للخزرجي ، عبد الله محمد بن المكرم بن أبو الحسن بن أحمد الأنصاري ، ص١٣٢ .

[٥] رواه البخاري في كتاب الصلاة باب رفع الصوت في المسجد .

حتى يخرج إليه ، ولا يطرقه لئلا يزعجه ويرفع صوته عليه ، وذلك لأن العلماء هم ورثة الأنبياء [1] .

ولا شك أن رفع الصوت عنده عليه الصلاة والسلام حياً وميتاً تترتب عليه شرور وآثام منها استمرار رفع الصوت نفسه ، فمن كان مستمراً عليه فقد ابتلي ولا أضر من بقاء ممارسة المسلم البدعة .

ومن يرتكب ذنباً لم يسبق له أن ابتلي به يُرى نادماً خائفاً خجلاً ، ولكنه إذا عاد إليه مرة أخرى يقل ذلك كله عنده فيهون عليه ، وتلك مصيبة ، وأعظمها أن يظن المسلم أنه لا يرتد ولا يحبط عمله إذا ارتكب ما يسبب ذلك أول الأمر [2] .

وقد ابتلي بعض المسلمين بعد القرون المفضلة ، بهذه البدعة التي نهى عنها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وأخبر بأنها تحبط الأعمال ، واختلط الأمر على كثير منهم ، وسول لهم الشيطان وزين لهم رفع أصواتهم عند رسول الله ﷺ وهو في مضجعه مع ما تلهج به هذه الأصوات وتلهث به من كلمات شركية ، وعبارات سخيفة مما يبغضه رسول الله ﷺ ويوجب مخالفته . بل تجاوز الأمر وزاد عن ذلك وقد تعطلت المساجد التي أمر الله بعمارتها ، وعمرت المقابر والمشاهد .

ودعوا الناس الموتى استغاثوا بهم وطلبوا منهم قضاء الحوائج ودفع المضار ، كما تستغيث النصارى بالمسيح وأمه ، وقد وصل الغلو بكثير من المسلمين إلى أن جموعاً غفيرة تأتي إلى الحج وإلى المشاعر الطاهرة ولا تبحث إلا عن المشاهد والقبور ، ويكون هم هؤلاء هو قصد زيارة قبر الرسول ﷺ ورفع الأصوات فوق مضجعه ﷺ ، لا زيارة المسجد النبوي والصلاة فيه ، وكل ذلك لم يفعله الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، ولا أمروا به بعد وفاة الرسول ﷺ .

---

[1] الآداب الشرعية / ابن مفلح الحنبلي ، ج٢ ، ص٢٥،٢٨ . البحر المحيط / أبي حيان ، أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف ، الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ج٨ ، ص١٠٦ . روح المعاني / الآلوسي ، المرجع السابق ، ج٢٦ ، ص١٣٧ . تفسير روح البيان / إسماعيل حقي ، ج٩ ، ص٦٦ .

[2] التفسير الكبير / الرازي ، المرجع السابق ، ج٢٨ ، ص١١٤ .

المبحث الرابع

غض الصوت عند رسول الله ﷺ والحياء منه

قال الله تعالى : " إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم " (سورة الحجرات ، الآية : ٣) .

إن كلمة التقوى في هذه الآية هدف يتسابق إليه المؤمنون ، ويرمي إليه هؤلاء الغاضون أصواتهم ، فإذا هيأ الله هذه القلوب وأخلصها فلم تكن لغير التقوى ، ولم تتأدب بغير أدب الله تعالى ، كان ذلك هو الكمال الذي يربي الله به المجتمع المسلم ويرفع من قدره ومكانته . والمجتمع المسلم أفراداً وجماعات ودولاً وشعوباً منزلته تكون على قدر احترامه وتقديره للنبي ﷺ في الدنيا والآخرة .

فالامتحان للتقوى باستجابة أوامره واجتناب نواهيه ، هو الأدب القرآني الذي رفع من شأن الصحابة إلى قمة التقوى[١] .

وقد امتثل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ما أمرهم الله وأدبهم به ، بكل ما فيه من سمو وإتباع لكتاب الله تعالى ، فكانوا وقافين عند حدود الله تعالى ، متخلقين بأدب القرآن أدب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وكذلك كان التابعون من بعدهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد نزول الآيات يقول للرسول ﷺ : " آليت أن لا أكلمك إلا كأخي السرار " . بل إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يتوقف عند هذا الحد في استجابته لأمر الله تعالى في توقيره رسول الله ﷺ بل إنه دعا إلى ذلك وأحبه لإخوته المسلمين فما إن يسمع بأحد يقدم المدينة قاصداً الرسول ﷺ في حياته إلا ويستقبله ليعلمه كيف يسلم على رسول الله ﷺ ويسأله حاجته ويسمع منه .

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ارتفع صوته مع الصديق في شأن من يؤمر من وفد بني تميم ، فكان بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ " فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه "[٢] .

---

[١] التفسير الكبير / الرازي ، المرجع السابق ، ج٢٨ ، ص١١٥،١١٦ .

[٢] رواه البخاري في تفسير سورة الحجرات ، ج٨ ، . والترمذي حديث رقم ٣٢٦٦ ، ج٥ وقال : هذا الحديث حسن غريب ، وهذا جزء من حديث أبي مليكة (كاد الخيران ....) .

وأما ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ الذي كان رفيع الصوت وشديد الإيقاع عندما يلقي خطبته ، فقد كان في تأدبه بهذا الأدب وتلبيته لأمر الله تعالى ، كما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : " إن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ قال : شر . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ وأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال : فرجع إليه ببشارة عظيمة ، فقال اذهب إليه فقل له : " إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة " [١] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الآية السابقة الذكر : " فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسول الله ﷺ مطلقاً فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهون عن رفع الصوت عنده ﷺ ، وأما غض الصوت مطلقاً عند رسول الله ﷺ فهو غض خاص ، ممدوح ويمكن للعبد أن يغض صوته مطلقاً في كل حال ، ولم يؤمر العبد به ، بل يؤمر برفع الصوت في مواضع : إما أمر إيجاب أو استحباب ، فلهذا قال تعالى : " **واغضض من صوتك** " (سورة لقمان ، الآية : ١٩) . فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه ، فبالسمع يدخل القلب وبالصوت يخرج منه ، كما جمع بين العضوين في قوله تعالى : " **ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين** " (سورة البلد ، الآيات : ٨،٩) . فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور ، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور ، هذا رائد القلب وصاحب خبرة وجاسوسية ، وهذا ترجمانه " [٢] .

أما هذا الأدب والحياء من الله ورسوله ﷺ هما الشعار العام والخاص لصحابة رسول الله ﷺ وللتابعين وأئمة الهدى ومن تبعهم بإحسان واهتدى بهداهم ، فما كانوا – رضي الله عنهم – يطيقون أن يملأ أحدهم عينيه من رسول الله ﷺ لحيائهم وخفض أصواتهم ولأبصارهم عنده ، بل يذكر عن كثير منهم أنه لا يستطيع أن يصف رسول الله ﷺ [٣] . بل إني ألاحظ أن الذين وصفوه ، إنما وصفوه لمن سألهم بعد وفاته ﷺ ، وكان إذا خرج إليهم في

---

[١] رواه البخاري في تفسير سورة الحجرات ، ومسلم في كتاب التفسير . انظر أيضاً الخلاصة / للخزرجي ، المرجع السابق ، ص٣٨٩ .

[٢] مجموع الفتاوى / ابن تيمية ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ، ١٩٩١م ، القاهرة : دار المنار ، ج١٥ ، ص٣٨٣ .

[٣] كما وصفته أم معبد الخزاعية لما مر على خيمتها في طريقه مهاجراً إلى المدينة ، وما تمكنت من ذلك إلا لنفاذ نظرة المرأة إلى الرجل ، ولهذا اعتبره العلماء من أدق الوصف له ﷺ . انظر الطبقات الكبرى / ابن سعد ، محمد ، بيروت : دار صادر ، ج١ ، ص٢٣ .

مجلس لا يرفعون أبصارهم إليه إجلالاً وتعظيماً له ، وأما التابعون ومن بعدهم من أئمة الهدى فقد نقل عن كثير منهم أنه إذا سمع ذكر رسول الله ﷺ يسكت ، ومنهم من يبكي ، وكذلك كانوا في سماع حديثه ﷺ [1] .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهابون مواجهة الرسول ﷺ بالسؤال من شدة حيائهم وخفض حركاتهم عنده ، ويودون أن يأتيه رجل من البادية فيسأله ليفيدهم . ولذا كان جبريل عليه السلام يأتيه في صورة إعرابي ، ليعلمهم كيف يسألون عن دينهم ويتعلمون منه [2] .

تلك هي الصورة الأدبية الرفيعة التي هذب الله بها المؤمنون وأدبهم فأحسن تأديبهم ، هذه الصورة الاجتماعية هيأ الله بها نفوساً أبية مؤمنة ، تعلقت أرواحها بأدب القرآن ، وسمت أخلاقها مع رسول الله المختار ﷺ ، إنها نفوس تتشوق وتتساءل مالها بعد تخلقها وتأدبها بأدب القرآن وتوقير الرسول ﷺ ، فيأتيهم ببشرى سريعة كسرعة توبتهم ، ويحكي لهم هذه الصورة الفريدة ، عندما احترموا واستحوا من رسول الله ﷺ وخفضوا الأصوات والأبصار عنده ، صورة القلوب التي هي للتقوى لا لغيرها ، فلتكن المغفرة لهم ، وليكن الأجر العظيم والثواب الجزيل لهم كذلك .

المبحث الخامس

ما قيل في سبب نزول الآيات الدالة على الأدب مع رسول الله ﷺ

قال الله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم * إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم "(سورة الحجرات ، الآيات : ٢-٥) .

قيل في سبب نزولها كما أخرج البخاري :" كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا صوتهما عند رسول الله ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ..." وقيل نزلت في وفد بني تميم أنفسهم وقيل نزلت في ثابت

---

[1] الشفا / القاضي عياض ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٧ – ٤٧ .

[2] شرح السنة / البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود ، ط١ ، ١٩٨٣م ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ج١ ، ص١٥ .

بن قيس بن شماس رضي الله عنه [١] . لأنه كان جهير الصوت عند رسول الله ﷺ .

قال ابن عطية[٢] : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة العرب . قال ابن حجر بعد ذكره قول ابن عطية هذا :" لا يعارض ذلك هذا الحديث فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة " (لا تقدموا) ولكن لما اتصل بها قوله تعالى :" لا ترفعوا " تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من وفد بني تميم والذي يختص بهم قوله تعالى :" إن الذين ينادونك من وراء الحجرات " . وقال : لا مانع أن تنزل الآية لأسباب تتقدمها فلا يعد إلى الترجيح مع ظهور الجمع وصحة الطرق ، ولعل البخاري استشعر ذلك فأورد قصة ثابت بن قيس عقب هذا ليبين ما أشرت إليه من الجمع ثم عقب ذلك كله بترجمة بقوله : قال تعالى :" ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم " . إشارة إلى قصة جفاة الأعراب من بني تميم ، لكنه لم يذكر في الترجمة حديثاً ، وكان ذكر حديث ثابت بن قيس لأنه هو الذي كان خطيباً لما وقع الكلام في المفاخرة .

أما المناداة من وراء الحجرات فإنها من وفد بني تميم كما جاء في الروايات وأصحها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد فلم يجبه ، وفي رواية يا رسول الله :" إن حمدي لزين وإن ذمي لشين . فقال رسول الله ﷺ : " ذاك الله عز وجل "[٣] . قلت : الأقرب أن هذه الآيات نزلت في وفد بني تميم وشملتهم مع من كان يرفع صوته عند رسول الله ﷺ ويجهر له بالقول ، ويدخل في ذلكما حصل من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وما كان يحصل من ثابت بن قيس ولو كان ذلك عن غير قصد منهم ومن غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

---

[١] هو ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري رضي الله عنه خطيب رسول الله ﷺ وقد قتل شهيداً في معركة اليمامة ، ولما قتل جاءه رجل من المسلمين وأخذ درعه ، فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في النوم فأوصاه وقال له : لا تقل هذا حلم ، وأوصاه بأن يقول لخالد رضي الله عنه أن رجلاً أخذ درعي بعدما قتلت ووصفه ومكانه ، فخذه منه ثم أرسله لأبي بكر الصديق وقل له أن علي من الدين كذا وكذا ، فبحثوا عن الرجل في ميدان المعركة ووجدوه والدرع عنده وفعل خالد ما أوصاه به ثابت ، ثم نفذ الصديق وصيته وهي وصية الميت التي نفذت وأقرت . انظر ترجمته في الإصابة ، ج١ ، ص١٩٥ .

[٢] هو الإمام الحافظ المتقن أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الغرناطي الأندلسي وكان أديباً شاعراً لغوياً ديناً فاضلاً ، وقد كف بصره في آخر عمره ، ولد سنة ٤٤١ هـ وتوفى بغرناطة في جمادي الآخرة سنة ٥١٨هـ . انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ، ج٤ ، ص١٢٦٩ .

[٣] رواه الإمام أحمد في المسند ، ج٣ ، ص٣٩٣-٣٩٤ . ورواه الترمذي ، ج٥ ، ص٣٢٦٧ وقال حديث حسن غريب .

وترتيب القصة فيما يبدوا لي كالتالي : نداء الوفد من حول الحجرات بأصوات مرتفعة ، ثم خروج الرسول ﷺ فتم أمره معهم بعد ذلك ثم فكر الرسول ﷺ أو استشار أصحابه فيمن يؤمره على الوفد منهم ، فاختلف الشيخان وارتفعت أصواتهما ثم نزلت الآيات فتعلق الرواة بنهاية القصة وهو ما حصل من الشيخين ، وظنوه أنه هو سبب نزول الآيات ، بينما أول القصة وهو نداء الأعراب هو السبب المباشر وإن عمت الآيات ما حصل بعد ذلك . وأسلوب وترتيب الآيات يبدو والله أعلم أنه ساعدهم في ذلك . فنداء الله هؤلاء بالإيمان وأن الله امتحن قلوبهم للتقوى يناسب أو ألصق بمن كان في الإسلام سابقاً أكثر من هؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل نزول الآيات ولم يصلوا إلى درجة – حتى الآن – تطابق قوله تعالى :" امتحن الله قلوبهم للتقوى " . وهذه الآية ترتبط بما قبلها فكأنها تخاطب من خوطب بما قبلها فامتثل النهي سريعاً ولهذا اختفى ثابت مخافة أن عمله حبط حتى أرسل له الرسول ﷺ وبشره بأنه من أهل الجنة ، وكذلك فهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، كما في رواية البخاري فلا يكلمان رسول الله ﷺ حتى يستفهما منه ، وكما قال أبو بكر رضي الله عنه :" آليت ألا أكلمك إلا كأخي السرار "[1] . فمدح الله فيهم بما هم به جديرون وهو أن الله امتحن قلوبهم للتقوى .

ومن هنا كان صنيع البخاري في غاية الدقة ، فإن ذكره قصة الشيخين هنا وثابت بن قيس رضي الله عنهم أجمعين سبباً لنزول الآيات لا يعني أن السبب مقتصر على ما حصل منهم ، بل وقصة وفد بني تميم من باب أولى ، وصنيع البخاري هذا يشير به إلى أن مراده عموم الآيات ، وإن كانت حادثة جفاة الأعراب أقرب إلى إساءة الأدب مع رسول الله ﷺ ، فالعبرة بعموم اللفظ دائماً لا بخصوص السبب ، ويبدو لي أن الحافظ ابن حجر رحمه الله لم يوفق في تحرير هدف البخاري هنا ، وإن قارب ودنا منه[2] .

هذا ولا خلاف أن الآيتين الأخيرتين نزلتا في وفد بني تميم ، وهي تعم من شابه الوفد في صنيعه بنداء من وراء الحجرات ، كما في بعض الروايات

---

[1] فتح الباري شرح صحيح البخاري / ابن حجر ، ج٨ ، ص٥٩١ .
[2] المرجع نفسه ، ج٨ ، ص٥٩١،٥٩٢ .

أن ناساً من العرب قالوا ننطلق إلى هذا الرجل – يعني النبي ﷺ – فإن يكن نبياً نكن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكاً نعيش في جناحه ، فكانت المناداة[1] .

هذا وما أروع ما جاء في هذه الآيات ثانيةً ، فكأنهم يتساءلون ويستفسرون حرصاً على ما حصل لقلوبهم ونفوسهم من أنها للتقوى وأن المغفرة والأجر العظيم ثوابهم ، فكأنهم يقولون هل هناك ما يسلب منا هذه النعمة ويقلب القلوب من التقوى إلى غيرها – لا سمح الله – فقيل إن ذلك لا يكون إلا ممن لا يعقل كهؤلاء الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ... وقد وصل بين الآيتين " إن الذين ينادونك " و " ولو أنهم صبروا " لمشاركة بين الأمرين في القبح وإساءة الأدب ، المناداة المتكررة من وراء الحجرات وفقدان الصبر حتى يخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فقد أساءوا الأدب مع الرسول ﷺ بالمناداة ، ومع أنفسهم إذ لم يتخلقوا بفضيلة الصبر ، والفصل هنا بين الإساءتين رفع الصوت والجهر بالقول وبين الأسلوبين أسلوب الفصل الذي عرفنا ما فيه من الدقة والبيان .

وختم الآية بقوله تعالى :" والله غفور رحيم " . ليفتح لهم باب مقابلة السيئة بالحسنة تأليفاً لهم من الله تعالى ورسوله ﷺ إذ خرج إليهم وأكرم وفدهم وعزز وفادتهم ولبى مطالبهم فتحقق من ذلك خير كثير وفوز عميم ، فدخلوا في باب الرحمة الذي فتحه الرحمن الرحيم وختم به زلتهم وبدد جفاءهم ، فكانوا بعد ذلك مؤمنين مجاهدين .

---

[1] جامع البيان في تفسير القرآن / الطبري ، ج٢٦ ، ص١٢١ .

الخـــــــــاتمة:

للدعاة والعلماء في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة ، لو تمسك بها الجميع وعملوا بمقتضاها متبعين لا مخالفين لانحلت صعوبات كثيرة ولتذللت عقبات في طريق الدعوة والدعاة . ولكن مما يؤسف له أن هذا الخلق والأسلوب الناجح في القدوة الحسنة واعتبار النتائج ، كل ذلك فقده كثير من الدعاة والعلماء أو افتقدوه ، حتى بين أنفسهم كيف يعامل بعضهم البعض الآخر ، فقد أثرت في كثير من هؤلاء أخلاق الماديين وأساليب التوحيديين وانزلقوا خلف شعارات زائفة ومظاهر قاتمة متأثرين بغيرهم من دعاة الجاهلية وأغوياء العلمانية . فلم يتوقع منهم التجمل والخلق الحسن والقدوة المربية للعوام والجفاة الذين ضل سعيهم كثيراً وساءت أخلاقهم وقبحت آدابهم بسبب استرخاء الدول الإسلامية في أمر الله وأمر رسوله ﷺ وتهافت كثير من أهل العلم على الدنيا ومناصبها ومباهجها ، وهم بين حاسد ومحسود وغافل ومفتون . إلا ما شاء الله وقليل من عبادي الشكور .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر :-

١- القرآن الكريم

٢- صحيح البخاري

٣- صحيح مسلم

ثانياً المراجع :-

١-الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود ، روح المعاني ، ط٤ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .

٢-البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود ، شرح السنة ، ط١ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٣م .

٣-ابن تيمية ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ، جموع الفتاوى ، القاهرة ، دار المنار ، ١٩٩١م .

٤-حقي ، إسماعيل ، تفسير روح البيان ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

٥-الحنبلي ، ابن مفلح ، الآداب الشرعية ، القاهرة ، دار الحديث ، ١٩٩١م

٦-ابن حيان ، أثير الدين بن عبد الله محمد بن يوسف ، البحر المحيط ، الرياض ، مكتبة النصر الحديثة .

٧-الخزرجي ،عبد الله محمد بن المكرم بن أحمد ، الخلاصة ، ط٢ ، ١٩٨٦م

٨-الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، مختار الصحاح .

٩-الرازي ، محمد فخر الدين بن عمر ، التفسير الكبير ، ط٣ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٥م .

١٠-الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، الكشاف ، القاهرة ، دار الفكر .

١١-ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر .

١٢- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، الإكليل في استنباط التنزيل .

١٣- الشنقيطي ، محمد الأمين ، أضواء البيان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٩٥م .

١٤- ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، أحكام القرآن ، القاهرة ، دار الفكر العربي .
١٥- القاضي عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ، الشفا ، بيروت ، دار الجيل .
١٦- الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، بيروت ، دار الجيل .
١٧- الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقرئ ، المصباح المنير ، بيروت ، المكتبة العلمية .
١٨- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، تفسير القرطبي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٠م .
١٩- ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، تفسير ابن كثير ، بيروت ، دار الجيل .
٢٠- ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل ، لسان العرب ، ط٣ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٩٣م .